بيننا مُصالِح

هناك آية شهيرة قالها أيّوب عن الله، أثناء ضيقته وحيرته من التجربة العنيفة التي أصابته.. وهي تَصلُح أن تُقال بِلسان البشريّة كلّها:

"لأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ إِنْسَانًا مِثْلِي فَأُجَاوِبَهُ، فَنَأْتِيَ جَمِيعًا إِلَى الْمُحَاكَمَةِ.

لَيْسَ بَيْنَنَا مُصَالِحٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى كِلَيْنَا" (أي9: 32-33).

فقد كان أيّوب يحاول أن يتواصَل مع الله، ليفهم ماذا يَحدُث؟ ولماذا توالَت المصائب عليه؟

ولكنّه لا يستطيع الوصول إلى الله، إذ ليس هو إنسانًا مثله، وبالتالي لا يوجَد مُصالِح يستطيع أن يوفّق بينه وبين الله..!

+ لقد كان هذا هو وضع البشريّة بعد السقوط، عندما فقدت شركتها مع الله.. ولكنّ كان تدبير الله أن يتجسّد الابن الوحيد الكلمة، لكي يكون هو المُصالِح الذي يَضَع يدَه على كِلَينا، أي الله والبشريّة، فهو ابن الله وابن الإنسان في نفس الوقت، مساوٍ لله بلاهوته ومساوٍ للإنسان بناسوته، في شخصه الواحد الفريد.. وبالتالي فقد كان هو المُصالِح المثالي الذي يستطيع أن يضع يده على كلينا، ويصالحنا معًا.. فنستعيد نحن البشر الشركة مع الله ونحيا إلى الأبد في أحضانه..!

من أجل هذا، فالآن "بيننا مُصالِح"..!

+ القدّيس بولس الرسول يشرح كيف أنّ الخطيّة صنعت حاجزًا من العداوة مع الله، والمسيح بتجسّده وفدائه هَدَمَ هذا الحاجز.. فيقول:

"الآنَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً بَعِيدِينَ، صِرْتُمْ قَرِيبِينَ بِدَمِ الْمَسِيحِ. لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ (اليهود والأمم) وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ، أَيِ الْعَدَاوَةَ. مُبْطِلاً بِجَسَدِهِ نَامُوسَ الْوَصَايَا فِي فَرَائِضَ، لِكَيْ يَخْلُقَ الاثْنَيْنِ فِي نَفْسِهِ إِنْسَانًا وَاحِدًا جَدِيدًا، صَانِعًا سَلاَمًا، وَيُصَالِحَ الاثْنَيْنِ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ مَعَ اللهِ بِالصَّلِيبِ، قَاتِلاً الْعَدَاوَةَ بِهِ. فَجَاءَ وَبَشَّرَكُمْ بِسَلاَمٍ، أَنْتُمُ الْبَعِيدِينَ وَالْقَرِيبِينَ. لأَنَّ بِهِ لَنَا كِلَيْنَا قُدُومًا فِي رُوحٍ وَاحِدٍ إِلَى الآبِ. فَلَسْتُمْ إِذًا بَعْدُ غُرَبَاءَ وَنُزُلاً، بَلْ رَعِيَّةٌ مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَأَهْلِ بَيْتِ اللهِ" (أف2: 13-19).

+ لعلّنا نلاحظ أنّ الله هو دائمًا صاحب مبادرة التصالح، إذ أنّ الإنسانَ عاجزٌ.. ولكن يبقى دور الإنسان أن يتجاوب بفرح مع نداء التوبة الذي يقدّمه له الله، بل ويصير حاملاً لنفس رسالة الله له بالمصالحة، وتوصيلها للعالم كلّه لكي يتصالح الناس مع الله مثله.. وهذا يوضّحه القدّيس بولس الرسول بشكل جميل ومُركَّز، عندما يقول:

"اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَوَاضِعًا فِينَا كَلِمَةَ الْمُصَالَحَةِ.

إِذًا نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (2كو5: 19-20).

* ماذا نحتاج لكي نتصالح مع الله؟

نحتاج لثلاثة أمور على الأقلّ:

أوّلاً: نفهم إيماننا الثمين:

أنّ الله هو أبونا..

وأنّه بذل ابنه الوحيد من أجلنا،

وأنّه أعطانا روحه ليسكن فينا،

وأنّ محبّته لنا لا تتغيّر أبدًا، ولا تنقص بسبب سوء أفعالنا..

نؤمن أنّنا في المسيح قد صِرنا أبناء الله بالتبنّي، وأعضاء أهل بيته، ولسنا بعد غرباء عنه..

فالعودة للمصالحة مع الله، والارتماء في حضنه، هو الوضع الطبيعي لكلّ الأبناء.

ثانيًا: نواجه أنفسنا بصدق..

كما يقول مار إسحق السرياني: "اصطلح مع نفسك تصطلح معك السماء والأرض".

لحظات صدق مع النفس، هي كفيلة بوضع الإنسان في مواجهة حقيقيّة مع الله، واكتشاف حُبّه الهائل لنا.. مع إدراك مدى الانحدار والمهانة التي أصابتنا نتيجة البُعد عن الله.. فنعود إليه بسرعة، قارعين باب تعطّفه، وملتمسين مراحمه، مِثل الابن الضال والعشّار، فيأخذنا في أحضانه ويغمرنا بحبّه وقبلاته وتبريره وسلامه.. فنفرح معًا..!

الصلاة هي باب التوبة.. فهي ارتماء في حضن الله.. و"الذي يظنّ أنّ له بابًا آخَر للتوبة غير الصلاة، فهو مخدوع من الشياطين" كما يقول مار إسحق أيضًا.

لذلك فالمواظبة على الصلاة بكلّ القلب، تجعل توبتنا حيّة باستمرار، فنحيا في سلام مع الله.

ثالثًا: نتّخذ خطوات عمليّة للتوبة:

الخطيّة تُشكِّل حاجزًا بيننا وبين الله، لذلك لا مَفَرّ من التخلُّص منها بالتوبة، لكي تتمّ المصالحة، واستعادة الشركة معه.. وذلك يتمّ باتّخاذ خطوات داخل أنفسنا وخارجها أيضًا..

الخطوات الداخليّة: تَشمَل محاسبة النفس والندم على الخطيّة، ثمّ التصميم على تغيير الوضع وعدم العودة مرّة أخرى إلى ما قد تركناه، مع ثقة في حبّ الله وقوّة الغفران التي في دمه، أي قوّة الحياة الجديدة الغالبة للموت التي في دمه الثمين.

الخطوات الخارجيّة: تشمل الاعتراف أمام الشخص الذي أخطأت في حقّه، مع الاعتذار، ومحاولة إصلاح الخطأ بقدر المستطاع. ثُمّ الاعتراف أمام الله والأب الكاهن لنوال التحليل والإرشاد الروحي.

* نقطة أخيرة:

يلزمنا أنّ ننتبه إلى أنّ "الذّات" هي أكبر عائق للمصالحة مع الله ومع النفس ومع الآخَرين.. فهي عدو مُزعِج يَرفُض الاعتراف بالخطأ، ويتهرّب من الاعتذار، ولا يقبَل الخضوع للتأديب.. لذلك فالتواضع وإنكار الذّات هما أساسيّان لإتمام أيّة مصالحة حقيقيّة مع الله أو مع الآخَرين..!

القمص يوحنا نصيف